مجلة الإحياء، المجلد 24، العدد: 34، جانفي 2024، ص - ص: 67-80
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

المنهج العلمي وإشكالية التحدي والإعجاز في القرآن الكريم

The scientific methodology and the problematics of challenge and miracle in the Holy Quran

د/ خميس بن عاشور
Khemis BENASHUR
جامعة أم القرى - مكة المكرمة
benashur@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2024/01/15 تاريخ القبول: 2024/01/31

الملخص:
يعالج هذا البحث إشكالية التعارض الظاهري بين المنهج العلمي والتحدي بالإعجاز في القرآن الكريم، القرآن الذي يعتبر أن الإيمان علم أيضا وفق آخر ما توصل إليه فلاسفة العلم المعاصرين الذين لم يكتفوا بالتحقق في النظريات العلمية بل اشترطوا أيضا أن تكون قابلة للتفنيد، وهذا ما كشف زيف بعض النظريات العلمية الكبرى مثل نظرية التطور وبعض نظريات علم الكون مما جعل الإلحاد يفقد تلك الخلفية العلمية التي استند عليها مدة من الزمن إلى أن خرج من دائرة العلم إلى دائر الإيديولوجيا والدوغمائية، وتظهر هذه المنهجية جلية في القرآن الكريم من خلال عرض بعض النماذج في قضايا مختلفة حول التحدي بالإعجاز في مجالات البيان والغيب والعلم التجريبي والكوني والتي أكدت على أن الحقائق الإيمانية هي أيضا حقائق علمية.
الكلمات المفتاحية: المنهج العلمي؛ التحدي؛ الغيب؛ الإعجاز؛ التفنيد.

Summary
This research addresses the problem of unreal conflict Between the scientific method and the challenge of miracles in the Holy Qur'an Which considers that faith is also science According to the latest findings of contemporary philosophers of science Who were not satisfied with verifying scientific theories, but also added another condition Makes it refutable, This revealed the falsity of some major scientific theories Such as the theory of evolution and some theories of cosmology Which made atheism lose the scientific background on which it was based for a long period of time Until he left the circle of science to the circle of ideology and dogmatism, This methodology appears clearly in the Holy Qur'an through the presentation of some examples On topics related to the challenge of miracles Such as areas of rhetoric And what relates to matters of the unseen, And experimental and cosmological science Which proved that faith truths are also scientific truths.
Key words: scientific method; challenge; unseen; miracle; refutation.

المقدمة

المنهج العلمي هو الطريق الذي يهتدي به الفكر البشري عن طريق تلك المعالم المنصوبة على حوافه والحاملة لمؤشرات العقل والمنطق والافتراض وذلك بغرض الوصول إلى إجابات صحيحة لمشكلات

العقيدة والحياة عن طريق التجريب والاستنتاج والتي تكون نتائجها قابلة للتكرار وبالتالي صالحة للاستغلال مستقبلا من غير استبعاد لظهور معطيات جديدة قد تلغي تلك الإجابات أو تعدلها، فالعلم - باعتباره نظريات وقوانين - هو نتيجة للمنهج العلمي ويبقى دائما قابلا للتحقق ثم للتفنيد والدحض كليا أو جزئيا، ومن هنا نصل إلى **إشكالية** موضوع دراستي هذه والمتمثلة في ذلك التحدي والإعجاز الوارد في كثير من الآيات القرآنية الموجه للمخالفين من الكفار والمشركين ومدى موافقته للمنهج العلمي، فالتحدي لا يمكن أن يدعيه إلا الأقوياء الذين لهم قناعة تامة بموضوع التحدي الموجه إلى المخالفين والذين بدورهم سيجتهدون بكل ما يملكون من قوة ومعرفة للعمل بنجاح على إبطال ذلك التحدي قبل مرحلة الاستسلام أو الجحود أو المراوغة والتحايل.

يكفي للإجابة على هذه الإشكالية استقراءٌ جزئيٌ فحسب لآيات التحدي بالإعجاز لأنها جميعا تشترك في المنهج والهدف، منهج الإثبات والتحقق وهدف إقامة الحجة على صدق الرسل في دعوتهم أنه لا خالق إلا الله ولا معبود بحق سواه.

تكمن **أهمية البحث** في وصف ذلك التعارض بين العلم والإيمان الذي تميز به العصر الحديث بسبب الأدلجة والعلوم الزائفة التي أحدثت توترا وتعارضا ظاهريا بينهما على الرغم من ان العلم متمثلا في منهجه كفيلٌ بأن يكون حكما عدلا في هذا النزاع.

كما يهدف هذا البحث إلى التأكيد على أن الإيمان الصحيح علم أصيل، وأن المنهج الذي عرضه الوحي على المؤمنين للتصديق تحقق منه العلم بالتجربة والتحقيق.

وأما عن **خطة البحث** فجاءت -إضافة للمقدمة والخاتمة- كما يلي:

المطلب الأول: الإعجاز العلمي وإشكالية المنهج العلمي

المطلب الثاني: القرآن الكريم والعلم (المنهج العلمي)

المطلب الثالث: العلم الأصيل والعلم الزائف

المطلب الرابع: التحدي العلمي في القرآن الكريم وتهافت الملاحدة

المطلب الخامس: آيات التحدي وإمكانية التفنيد والدحض

المطلب السادس: نماذج تطبيقية من القرآن الكريم

المطلب الأول: الإعجاز العلمي وإشكالية المنهج العلمي

العلم المتمثل في النظريات والقوانين هو نتائج للمنهج العلمي - كما سبق - وهذه النتائج تتسم بطابع النسبية وذلك لإمكانية التفنيد والدحض من ناحية، ومن ناحية أخرى بسبب التشكيك في الاستقراء الذي يعتبر من الخطوات الهامة والضرورية في المنهج العلمي والذي لا يستطيع أحد أن يؤكد على إتمامه واستيعابه، فقد تتسبب حالة واحدة غير مكتشفة في إفساد كل نتائج الاستقراء مهما علت درجته و نسبته.

فنسبية العلم تجعل الإعجاز العلمي بدوره نسبيا أيضا ولذلك يكون التحفظ دائما مستحسنا بل واجبا أثناء الحديث عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، والقرآن باعتباره كلام الله ووحيه معجز بطبيعته، وذلك أن الخالق العليم الحكيم هو خالق العلم وخالق العلماء أيضا، ومن هذه الحيثية فالتحدي بالإعجاز مؤسس عقديا، ويبقى التأكيد على ذلك في الواقع العملي لأجل إقامة الحجة على المخالف عن طريق الواقع المحسوس والمشاهدة الذي يبعد كل الشبهات الجدلية والدوغمائية المتعصبة التي يطرحها خصوم الوحي.

وعلى الرغم من أن المعجزة أمر خارق للعادة لا يمكننا تفسيره بما نملك من معرفة علمية ومن قوانين ونظريات، إلا أن المنهج العلمي لا يستطيع استبعادها من دائرتة بسبب الحس المشاهدة، فعدم القدرة على تفسيرها إنما يرجع إلى قصور وسائل التفسير النسبية المكتشفة ، بينما نستطيع عن طريق الإيمان أن نفسرها أو بالأحرى نعللها بالقدرة الإلهية ، فالإيمان في هذه الحالة علم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 56] أي لا تؤمنون ، وقال: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ...﴾ [النساء: 162]، فالمؤمنون بإيمانهم بلغوا درجة الراسخين في العلم، وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11]، فالمؤمن يختصر الطريق عندما يؤمن بتلك المعجزات المتنوعة ويوقن بحقيقتها التي ذكرت في القرآن الكريم، بينما العالم قد يصل إليها عن طريق الاجتهاد والبحث والتجريب فيكون بذلك قد اكتشف شيئا كان يجهله ،بينما المؤمن يزيده ذلك الاكتشاف إيمانا على إيمانه السابق الذي استمده من الوحي وصار مسلَّما عنده تسليما يضاهي قناعة العالم بعد بحث وتجريب واستنتاج، فالأسلوب مختلف والنتيجة واحدة وهي الحقيقة العلمية، فالمعجزة ليست وضعا ميتافيزيقيا بل واقعا ملموسا ومشاهدا يعجز العلم عن تفسيره ولكن لا يستطيع نفيه بسبب الوجود والحس والمشاهدة، وهذا هو الإعجاز بالمفهوم البسيط ، ولا يزال المجال مفتوحا لاكتشاف قوانين علمية ليست معروفة حاليا وبالتالي إمكانية ظهور آيات ومعجزات آفاقية تتلاءم والتحديات القرآنية الخاصة بكل عصر ولا سيما عصرنا الحالي الذي يوصف دوما بأنه عصر العلم، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

المطلب الثاني: القرآن الكريم والعلم (المنهج العلمي)

العقيدة الإسلامية ليست دوغمائية أو مؤكدة من غير دليل وبرهانٍ مثلَ كثير من الأديان الوضعية أو السماوية المحرفة، لأننا في دوائر العلوم الإسلامية نجد أن الإجماع منعقد على أن العلم قبل القول والعمل وذلك أن الاعتقاد هو: "الحكم الذهني الجازم فإن طابق الواقع فصحيح وإلا ففاسد"[1]، بينما العلم هو اعتقاد الشيء على ما هو عليه اعتقادا جازما لا شك فيه مع شرط مطابقة الواقع؛ ولذلك فإننا نجزم بما لا مجال للريب فيه أن العقيدة الإسلامية هي عِلْم بالمفهوم العلمي والمنهجي؛ لأنه لا مكان في الإسلام لاعتقادٍ لا يؤسس على دليل سواء كان عقلياً صريحاً أو نقلياً صحيحاً. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]، وقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 19]، وقال جل ذكره: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9]، وقال: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111]، وجاء في كتاب العلم من صحيح البخاري رحمه الله باب: العلم قبل القول والعمل[2].

من أساسيات المنهج العلمي الوصف والملاحظة والافتراض، ثم التجربة والاستنتاج؛ ولقد نعى القرآن الكريم على الكفار عدم استعمالهم لوسائل الإدراك التي يتحقق بها هذا المنهج الذي يقود حتماً إلى الحقيقة العلمية الإيمانية المطابقة للواقع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]، فالحس المتمثل في السمع والبصر هو المرحلة الأولى في هذا المنهج حيث الملاحظة التي تقود إلى وجود المشكلة ، ثم تتدخل قوة الوعي والإدراك وهي التي يعبر عنها القرآن الكريم بالقلب والتي تجتهد في طرح الفرضيات والاستنتاجات المحتملة التي يؤكدها الواقع والتجربة ثم تقودنا إلى العلم والاعتقاد المطابق للواقع.

أولا: مفهوم العلم في القرآن الكريم

الآيات التي تذكر العلم كثيرة جدا في القرآن الكريم، ولكن بعد البحث والاستقراء فإنه بإمكاننا تحديد المفاهيم القرآنية الأساسية للعلم ونقسمها قسمين:

أ- العلم بمعنى العلم الإلهي، ويعبر عنه المفسرون بمصطلحات مختلفة منها (القرآن) نحو قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس:93]، قال الرازي في تفسير الآية: "والمراد من العلم القرآن النازل على محمد ﷺ، وإنما سماه علما لأنه سبب العلم، وتسمية السبب باسم المسبب مجاز مشهور[3] ، ونحو قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: 120]، والقرآن من علم الله"[4].

ومنها (كتب أهل الكتاب) نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: 19]، قال القرطبي: يعني بيان صفته ونبوته في كتبهم[5]، "والمراد من الكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب المنزلة، أو اللوح [المحفوظ]..."[6]، ونحو قوله تعالى: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: 143]، أي بعلم إن كان عندكم من أين هذا التحريم الذي افتعلتموه؟ ولا علم عندهم لأنهم لا يقرؤون الكتب[7].

ب- العلم بمعنى العلم الدنيوي البشري، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الزمر:49]، قال قتادة: "على علم عندي بوجوه المكاسب"[8]، ونحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: 83]، قال القرطبي: "... وقيل فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحو :يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا[9]، وقال أبو السعود: "أي أظهروا الفرح بذلك، وهو ما لهم من العقائد الزائغة والشبه الداحضة، وتسميتها علما للتهكم بهم، أو علم الطبائع والتنجيم والصنائع ونحو ذلك[10].

وخلاصة القول أن العلم في القرآن يأتي بمعنى الوحي الإلهي، وهو المعنى الغالب فيه، ويأتي بمعنى العلم الدنيوي البشري، الذي يشمل العلوم والمعارف الاستدلالية النظرية والتطبيقية العملية كالصنائع وطرق الكسب ونحوها.

ثانيا: بعض الفروقات

هناك فروقات دقيقة بين بعض المصطلحات المتعلقة بالعلوم والمعرفة ومنها:

أ- الفرق بين العلم والظن: عرّف الآمدي الظن بقوله: "وأما الظن فعبارة عن ترجح أحد الاحتمالين في النفس على الآخر من غير قطع (كما هو في العلم) "[11]، وعرفه الرازي بقوله: ".. ثم العبارة المحررة أن الظن تغليبٌ لأحد مُجوَّزَين ظاهري التجويز"[12]، فإذا كان الظن لا يفيد القطع فإن العلم يفيده، وهو فرق جوهري بينهما.

ب- الفرق بين العلم واليقين: الفرق بين العلم واليقين أن العلم هو اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة، واليقين هو سكون النفس وثَلَجُ الصدر بما عُلم، ولهذا لا يجوز أن يوصف الله باليقين.

ويقال: ثلج اليقين وبرد اليقين، ولا يقال: ثلج العلم وبرد العلم، وقيل: الموقن العالم بالشيء بعد حيرة وشك، والشاهد أنهم يجعلونه ضد الشك ويقولون: شك ويقين وقلّما يقال: شك وعلم، فاليقين ما يزيل الشك دون غيره من أضداد العلوم[13].

ويمكننا القول بعد ذلك: إن اليقين هو صفة للعلم تفيد أن هناك درجة عليا من العلم، كما أن هناك درجة عليا من الإيمان هي اليقين قال ابن مسعود: "اليقين الإيمان كلّه"[14].

ج- الفرق بين العلم والاعتقاد: كل علم اعتقاد، وليس كل اعتقاد علما إذ العلم بالشيء إنما هو تيقن صحته، والمُعتقِدُ يمكن تشكيكه بخلاف العالم ، قال الغزالي: ".. والمُعتقِد إن أصغى إلى الشبه تزلزل اعتقاده دون العالم..."[15].

ومجمل القول أن كلَّ علم اعتقادٌ وليس كلُّ اعتقادٍ علمًا، وإذا كان الاعتقاد مطابقا للواقع كان علماً، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، ولم يقل المعتقدون.

المطلب الثالث: العلم الأصيل والعلم الزائف

لقد سبق القرآن الكريم فلاسفة العلم في هذا العصر وعلى رأسهم كارل بوبر [1902م-994م]، وهو أحد كبار فلاسفة العلم في العصر الحديث والذي قال: "ليس العلم شيئا أكثر من منهجه"[16]، وكان من أعضاء حلقة فيينا التي دأبت على إقصاء الميتافيزيقا ورأت أن قضاياها لا معنى لها وسُمي مذهبها بالتجريبية المنطقية أو الوضعية المنطقية، ومع ذلك لم يكن بوبر مقتنعاً بمنهجها العلمي اقتناعا كليا لأنها اكتفت بالتحقق والبحث عن المؤيدات للنظرية العلمية بينما هو كان يرى أن ذلك غير كافٍ بسبب إمكانية حدث متوقع يدحض تلك النظرية ومؤيداتها ويفسد نتائج الاستقراء، فالنظرية التي لا تقبل الدحض والتفنيد بأي حدث ممكن التصور والوقوع هي نظرية غير علمية في رأيه، فعدم القابلية للدحض ليست مزية للنظرية بل عيبا فيها ،والأصالة العلمية لها تكمن في كثرة ما تمنعه وتحظره من أشياء فكلما كانت هذه الأشياء الممنوعة كثيرة كانت النظرية أكثر أصالة من غيرها ،وقد يتبين بطلان بعض النظريات القابلة للاختبار وعوض أن يعترف أصحابها بالخطأ الكلي أو الجزئي لها فإنهم يلجؤون إلى إعادة تفسير تحايلي لاجتناب التفنيد والدحض وهو ما يسميه بوبر **بـالمناورة الإصلاحية** وذلك ما ينقص من قيمة النظرية العلمية أو يحطمها كلية[17].

وقد اعتبر قانون القابلية للتفنيد والدحض الذي وضعه كارل بوبر مقياسا للتفريق بين العلم الأصيل والعلم الزائف، وليس المقصود بذلك الميتافيزيقا والقضايا الغيبية وبالتالي الدينية فحسب بل ويمكن لهذا القانون أن ينسحب حتى على النظريات التي تتبنى المنهج العلمي التجريبي من مثل نظرية التطور والارتقاء الداروينية وبعض نظريات علم الكون (الكوسمولوجيا) والفيزياء النظرية، بل وحتى الرياضيات أيضا التي من الممكن استخدماها في تلك المناورة الإصلاحية للبحث عن أوصاف رياضية صورية لبعض الظواهر الطبيعية والكونية الغير قابلة للتجريب، أو أن التجريب أظهر بطلانها ومع ذلك استخدمتها بعض التيارات الإلحادية للاستدلال على عدم وجود خالق للكون.

وأما كمثال على النظريات العلمية التي أثبت التجريب صحتها ففكرة مادية الضوء، ـ وفق نظرية الجاذبية ـ ومفادها أن الضوء لا بد أن ينجذب نحو الأجسام الثقيلة كالشمس تماما كما تنجذب الأجسام المادية وقد بين ألبرت أينشتين (1879-1955م) صاحب النظرية أن الضوء القادم من نجم ثابت بعيد يبدو موقعه الظاهري قريبا من الشمس سوف يصل إلى الأرض من اتجاه من شأنه أن يجعل النجم يبدو

مبعدا قليلا عن الشمس وهذا يتعذر رؤيته نهارا بسبب توهج الشمس ولكن أثناء كسوف كلي يمكن أخذ صور فوتوغرافية لهذا النجم فإذا أخذنا صورة لنفس النجم أثناء الليل أمكننا رؤية وقياس الفرق بين المسافتين[18] وهو ما توقعه أينشتين الذي لم يكتفِ بذلك بل حدد أيضا زاوية الانحراف التي أثبتت التجربة تقاربا بنسبة تقدير عالية جدا بينها وبين توقعه[19].

والذي يهمنا من قانون القابلية للدحض هو ما أشرت إليه آنفا من سبق القرآن الكريم لذلك وكيف عجز المخالفون من الكفار والمشركين أمام التحدي الإعجازي الذي طَلَب منهم القيام بعملية تفنيد ودحض ما كذبوا به، وأمام عجزهم فقد مارسوا عملية المناورة الإصلاحية - كما سماها بوبر- فقالوا على سبيل المثال عن معجزة انشقاق القمر: ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾، على الرغم من الدليل الحسي أمامهم وهو المشاهدة.

المطلب الرابع: آيات التحدي وإمكانية التفنيد والدحض

القرآن الكريم هو الكتاب الإلهي الذي وضع اللبنات الأولى للمنهج العلمي بمفهومه الدقيق فهو لا يهمل أدلة المخالفين المؤسسة أو الشبهات المستحكمة بل ويعرض أقوال أعدائه قبل إبطالها وفق قاعدة: الحكم على الشيء فرع عن تصوره التي تقتضي الوصف والتشخيص قبل العلاج والحل، والأكثر من ذلك أنه يدلهم على الطريقة المنهجية الصحيحة في رفض ما لا يقتنعون به من طروحات علمية وإيمانية إذا ما استطاعوا أن يكتشفوا خطأها أو عدم مطابقتها للواقع وذلك عن طريق التجربة والاستنتاج.

فهذا إبراهيم الخليل عليه السلام رأى قومه يعبدون الكواكب ويشركونها مع الله عز وجل فأراد أن يقنعهم ويستدل لهم على بطلان ما هم عليه من الاعتقاد، فاستعمل المنهج العلمي التجريبي الذي يحقق تلك الغاية النبيلة فافترض، ثم جرَّب، ثم استنتج النتيجة المطلوبة وهي بطلان الشرك أمام حقيقة التوحيد السامية. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78)﴾ [الأنعام: 75 إلى 78].

فقد كانت التجربة والاستنتاج هي الوسيلة الدافعة التي أظهرت أن هذه المخلوقات السماوية لا يجوز لها عقلاً أن تكون أرباباً وآلهة معبودة من دون الله عز وجل؛ لأنها تختفي وتزول، وهي خاضعة لنواميس الكون التي خلقها الله عز وجل لحفظ الكائنات حتى تؤدي دورها الذي من أجله وُجدَت، وحتى تتحقق حكمة الله في خلقها. فاعتقاد التوحيد في قصة إبراهيم مع قومه أساسه منهجي علمي راسخ، ودليله ظاهر لا مجال فيه للشبهات والريب؛ ولكن قومه (الدوغمائيين) وأمام حجة إبراهيم الخليل الدامغة تعنتوا واستعملوا العنف والقوة الظالمة لرد الحق والبرهان الذي جاءهم به قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت: 24].

وفي قصة موسى مع سحرة فرعون عندما هزمهم الله ونصر نبيه عليه السلام، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122)﴾ [الأعراف: 121-122]، واعتقاد هؤلاء السحرة بعد توبتهم وعلمهم بالإيمان الصحيح كان مؤسساً على منهج علمي أكيد، وذلك أنهم كانوا أعلم الناس في مملكة فرعون بالسحر، وعندما رأوا معجزة موسى علموا أن ذلك لا يمت بصلة لجنس السحر الذي علموه، فانقدح في روعهم نور الإيمان عن علم ودليل وتوفيق من الله عز وجل. ولذلك كثيراً ما يرد في القرآن الكريم اقتران العلم بالإيمان، واقتران الذين يعلمون بالذين يؤمنون. كما سبقت الإشارة إليه...

المطلب الخامس: التحدي العلمي في القرآن الكريم وتهافت الإلحاد

أساس التحدي بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم هو تقرير اعتقاد أن الله خالق كل شيء، وأن هذا الخلق كان بعلم وحكمة وقَدَر لا تفاوت فيه ولا تناقض ولا خلل قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 102]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]، ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: 3]، ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 117] أي: خالقهن من العدم.

.. وأساس هذا التحدي أيضا وجود منهجية علمية دقيقة تتميز بالارتكاز على الحس والمشاهدة والنظر والاستدلال من ناحية، ومن ناحية أخرى على تلك **الجدلية المنطقية** لإقامة الحجة على المنكرين الذين يغلبون المصالح والمسلمات الآبائية والجهل المركب على الحجج العلمية، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 17]، "فمن كان قادرا على خلق الأشياء (المتقدمة الذكر) كان بالعبادة أحق ممن هو مخلوق لا يضر ولا ينفع"[20]، ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: 4] فإن كانت لكم حجّة فأظهروها، أو دلالة فبيّنوها.. وإذ قد عجزتم عن ذلك فهلّا رجعتم عن غيّكم وأقلعتم؟[21].

يوصف هذا العصر الذي نعيش فيه بأنه عصر العلم (التجريبي) وتطبيقاته [التكنولوجيا] حيث فرح الإنسان بما عنده من معرفة علمية مكنته من استكشاف الكثير من أسرار الطبيعة وقوانينها جعلته يطور فكره وفلسفته وفق ذلك فظهرت الفلسفة التي تعرف بالوضعية المنطقية التي لا تعترف إلا بالحس والمشاهدة والتجربة ولا تقيم وزنا لكل ما هو غيبي ميتافيزيقي وتعتبره وهما وخيالا لا قيمة له، وظهرت نظرية التطور باعتبارها نظرية علمية في بدايتها ثم تحولت إلى إيديولوجية إلحادية بعدما أظهر العلم التجريبي خطأها.

والقرآن الكريم باعتباره آخر الكتب الإلهية نزولا، وباعتباره حجة الله على خلقه في جميع العصور فإن معجزاته لا تزال مستمرة في هذا العصر الذي تميز عن سائر العصور بذلك التراكم الكبير للمعارف والعلوم الإنسانية فجاءت معجزاته مناسبة لإنسان هذا العصر الذي اغتر بالعلم إلى درجة التأليه الذي هو امتداد لفكر عصر النهضة الأوروبية الشاملة في الفكر والفلسفة والعلوم والصنائع والقائمة أيضا على إقصاء الدين وعقائد الكتاب المقدس (اليهودية والمسيحية المحرفة) وما تعلق به من ميتافيزيقا وغيبيات لم يكن لها القدرة المنهجية على مواجهة ذلك الزحف المادي لعصر النهضة ، ومن أحسن النماذج على ذلك أو بالأحرى الرموز الإلحادية في هذا العصر ستيفن ويليام هوكينج[22]... ومع أنه كان يعاني من إعاقة حركية وكلامية عالية جدا فقد نسبت له أفكار ونظريات معقدة تجعلنا نشكك في نسبتها إلية ولكن الجماعة الإيديولوجية نسجت حول شخصيته هالة من التضخيم لقدرته الفكرية وذكائه الخارق بغرض تسويق الإلحاد المنسوب إلى العلوم الزائفة المبثوثة في كتابه الشهير : التصميم العظيم the grand design الذي (ألفه؟) بمعية عالم فيزياء آخر هو: ليونارد ملودينوف[23]، ويحتوي الكتاب على محاولة لنقض وجود فكرة الإله وأن الإله مجرد فكرة ليس لها أي أساس علمي وأن العلم ينفي وجوده، وأنه ما دامت الجاذبية موجودة فلا حاجة لنا للإله على الرغم من أن هذه النظرية الزائفة لا تصمد أمام أية محاولة للتحقق فضلا عن قابليتها للتفنيد والدحض ، فالجاذبية عبارة عن قوة بين أجسام مادية وبالتالي فإنها وجدت بعد وجود الأجسام لا قبلها، وبما أن فهم نيوتن عن الجاذبية ليس مكتملا فقد جاء

أينشتين بمفهوم أكثر وضوحا عن الجاذبية ، فالجاذبية عنده هي عبارة عن انحناءات أو تقعرات في الفراغ تسببها الكتلة فالجاذبية ناتجة عن وجود الكتلة وليس العكس والجاذبية عند نيوتن قوة ناشئة عن الكتلة وعند أينشتين مجال ناتج عن الكتلة وهذا يبين لنا أن رأي هوكينغ وزميله ليونارد مرفوض علميا، ومن المعروف عند جمهور علماء الكون أن بداية الكون - بما فيه بداية الجاذبية - كان مع الانفجار العظيم فدل ذلك على أن الحديث عن شيء قبل هذا الانفجار يكون خارج نطاق قوانين الفيزياء[24].

وما يقال عن الجاذبية يقال أيضا عن نظرية التطور والارتقاء الداروينية وغيرها من النظريات المادية الإلحادية التي تعتمد على العلوم الزائفة والتي لا تصمد أمام أية عملية تحقق أو تفنيد ،ومع ذلك لا تزال هذه النظريات المبررة للإلحاد متداولة في الأوساط الشعبية وحتى الأكاديمية ليس على أساس قوتها العلمية ولكن باعتبارها إيديولوجيات وعقائد وفلسفات يحاول الملاحدة أن يقنعوا بها أنفسهم لا أكثر ولا أقل، وحتى القوانين الفيزيائية الأصيلة فهي مجرد أوصاف رياضية للظواهر الطبيعية ولا علاقة لها بعملية الخلق من العدم لأنها أصلا كانت عدماً.

المطلب السادس: نماذج تطبيقية من القرآن الكريم

لقد حفلت آيُ القرآن الكريم بتطبيقات كثيرة للمنهج العلمي فيما يتعلق بالتحدي والإعجاز فهناك التحدي **المباشر** وهو التحدي البياني للقرآن الكريم في نظمه وأسلوبه ومعانيه مما يدركه البلغاء والفصحاء وعلماء البيان، ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرً﴾ [الإسراء: 88]، ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: 34]، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23]، وهناك تحدي **غير مباشر** يدركه العلماء وأهل الاختصاص في مختلف المعارف والفنون، وسأكتفي بثلاثة نماذج من كل ذلك وهي كما يلي:

أولا: التحدي البياني

لقد جرت العادة مع الرسل أن الله يؤيدهم بالمعجزات التي هي من جنس ما يتفوق فيه أقوامهم ، وبالنسبة للأمة العربية فإنها لا تكاد تعرف شيئا مما تفوقت فيه الأمم الأخرى إلا الفصاحة والبيان والبلاغة، فكان الإعجاز البياني وجه من وجوه الإعجاز القرآني الأخرى التي تتلاءم مع الموضوع والوسيلة والهدف، فقد نزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم وسط قوم يمجدون الكلمة ويخضعون لسحر البيان و لم تعرف أمة من الأمم كالعرب في تفوقها في فنون الكلام والفصاحة والبيان ،فجاءهم القرآن بكلام لا عهد لهم به ولم يسمعوا له مثيلا من قبل ، وأكثر من ذلك فقد تحداهم أن يؤلفوا كلاما يجاريه في الفصاحة و البيان والبلاغة ، قال تعالى متحديا لهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 38]، فرد الحقائق الواقعة بمجرد القول لا يؤثر فيها و إنما المطلوب دليل ملموس يؤكد الادعاء ببطلان تلك الحقائق، وهذه الآية إلزام بأن يأتوا بسورة مثله إن كان مفترى -كما يزعمون-، فقد أمره الله سبحانه أن يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال: قل فأتوا بسورة مثله أي: إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمدا افتراه، فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله في البلاغة، وجودة الصناعة، فأنتم مثله في معرفة لغة العرب، وفصاحة الألسن، وبلاغة الكلام وادعوا بمظاهريكم ومعاونيكم من استطعتم دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب، ومن آلهتكم التي تجعلونهم شركاء لله[25].

والتحدي في هذه الآية وقع بجهتي الإعجاز اللتين في القرآن: إحداهما النظم والرصف والإيجاز والجزالة، كل ذلك في التعريف بالحقائق، والأخرى المعاني من الغيب لما مضى ولما يستقبل، وحين تحداهم بعشر سور مفتريات إنما تحداهم بالنظم وحده[26]... وآيات التحدي في القرآن الكريم جاءت على وجوه: **أحدها**: قوله: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى﴾ [القصص: 49]، و**ثانيها**: قوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]، و**ثالثها**: قوله: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: 13] و**رابعها**: قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: 23][27].

فجعل عجزهم علماً للرسالة، فلو قدروا ما أقصروا، وبذلوا أرواحهم في إطفاء نوره وتوهين أمره، فلما رأيناهم تارة يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، وتارة يقولون: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾، وتارة يصفونه بأنه: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وتارة يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، وتارة يقولون: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾. كل ذلك عجزاً عن الإتيان بمثله، علمنا قصورهم عنه، ومحال أن يقال: إنه عورض فلم ينقل، فالنفوس مهتزة لنقل ما دق وجل، وقد رأينا كتباً كثيراً صنفت في الطعن على الإسلام قد نقلت وتدوولت[28].

فالتحدي البياني في القرآن الكريم كان موجها لمن هم أهل لذلك وموضوعه من جنس ما يتفوقون فيه عن غيرهم من الأمم ولا ينافسهم عليه أحد، مع امتلاكهم للوسائل التي تساعدهم من الألفاظ والمعاني والنظم، ولذلك كانت (المنازلة) متكافئة بل إن الكفة كانت تميل لغير النبي الأمي الذي يستمد قوة التحدي من الله الذي أرسله بوحي منه وذلك للدلالة على صدقه، على أساس أن محاولات التفنيد والدحض باءت بالفشل مع أنها داخلة في مجال الإمكان باعتبار أن القرآن عربي اللسان وحروفه وكلماته هي من جنس كلام العرب، فالتحدي البياني مؤسس منهجيا وعلميا لأن الغلبة والتفوق لم تكن نتيجة قهر وإلزام ،ولكن نتيجة نزال ومبارزة متكافئة في الوسائل والعُدد. فثبت بالمنهج العلمي حقيقة هذا التحدي الإعجازي البياني.

ثانيا: التحدي الغيبي

يرى جمهور العلماء أن التحدي في القرآن الكريم إنما وقع للعرب من جهة البيان والفصاحة والنظم وليس من جهة إعجازه الغيبي والعلمي والتشريعي أو العددي وغيره، ومع وجاهة هذا الرأي فهو لا يمنع وقوع التحديات الأخرى ضمنيا للعرب ولغيرهم من الأمم في كل زمان ومكان لأنهم جميعا مخاطبون بالقرآن ، ولأن المعجزات والتحديات في القرآن مستمرة إلى يوم القيامة ، ومن ذلك التحدي بالإعجاز الغيبي لأن الغرض يبقى دائما هو الاستدلال والبرهنة على صدق الرسول وما جاء به من ربه، ولقد أخبر القرآن الكريم بأحداث وقعت قبل نزوله، وأحداث مستقبلية ستقع أثناء نزوله، وأخرى بعد انقطاع الوحي مما يتعلق بظهور الآيات المستقبلية في الحياة الدنيا ،ثم ما سيقع بعد هذه الحياة من أحداث القيامة واليوم الآخر ،وقبل كل ذلك أشراطها وعلاماتها الصغرى والكبرى، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49].

ومن نماذج هذا التحدي إخبار القرآن الكريم بهزيمة الفرس بعد تغلبهم على الروم في تلك الواقعة الموثقة تاريخيا[29]، قال تعالى: ﴿الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ

وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5)﴾ [الروم: 1-5]، " فقد أخبر عن غلبة ستكون وستحدث لا عن غلبة قد كانت، ومثل هذا لا يدركه البشر ولا يستفاد منهم، إذ لا يبلغه علم البشر ولا يدرك بالقياس بالسابق من الأمور، فإذا كان على ما أخبر دل أنه بالله عَلِم ذلك، وبوحيٍ منه إليه عرف ذلك"[30]، وقد وجد المشركون في هذا التحدي فرصة ذهبية للدحض والتفنيد، ولما بلغ خبر انتصار الفرس إلى مكة شق ذلك على النبي ﷺ والمسلمين، لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب، وفرح المشركون وشمتوا وقالوا: قد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرنّ نحن عليكم ، فقال لهم أبو بكر رضى الله عنه :لا يقرّر الله أعينكم، فوالله لتظهرنّ الروم على فارس بعد بضع سنين، فقال له أبى بن خلف: كذبت يا أبا فصيل، اجعل بيننا أجلًا أناحبك علي، والمناحبة: المراهنة، فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما، وجعلا الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رضى الله عنه رسول الله ﷺ فقال: البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر ومادّه في الأجل. فجعلاها مائة قلوصٍ إلى تسع سنين. ومات أبىّ من جرح رسول الله له في غزوة أحد، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، وذلك عند رأس سبع سنين[31].

ومن نماذج هذا التحدي تأكيد القرآن الكريم على أن المسلمين سيدخلون المسجد الحرام فاتحين بعد صلح الحديبية على الرغم من سيطرة المشركين على مكة ومنعهم للصحابة من أداء العمرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 27].

وقد أخبر الله رسوله أنهم سيدخلونه حتما، والتأكيد مع الاستثناء كان على جهة تنبيههم إلى التأدب بتقديم المشيئة في خطابهم، وقيل: يرجع تقديم المشيئة إلى دخول كلهم أو دخول بعضهم فإن الدخول كان بعد أكثر من سنة، ومات منهم قوم[32].

وكان رسول الله ﷺ يقول أصحابه: ستأتون البيت وتطوفون به آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تَخافون، بناءً على رؤيا حقٍّ أراه الله إيَّاها، وظن المسلمون حين خرجوا في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة لأداء العمرة سائقين معهم الهدي، أنَّ ذلك هو وقت تَحقيق الوعد، إلا أنهم تحللوا يومئذ في الحديبية، ورجعوا دون أن يعتمروا، بعد التوقيع على صُلح مع المشركين الذي جاء على غير ما يسُرُّ الصحابة، وكان في هذه الحادثة فرصة للمنافقين للتفنيد والدحض فقالوا استهزاء: "ما دخلنا ولا حلقنا"[33]، لكن الله جعل هذا الصلح مقدمة للفتح المبين، الذي بشرت سورة الفتح بوقوعه والتي نزلت على رسول الله ﷺ وهم في طريق العودة من الحديبية إلى المدينة، ثم تحقق فتح مكة بعدها في السنة الثامنة من الهجرة.

لقد تبين في كل من سورتي الروم والفتح أن هذا الإعجاز الغيبي تحقق بطريقة منهجية علمية وذلك بعدما توفرت للمخالفين من المنافقين والمشركين فرصة لمحاولة دحضه وتفنيده ولكنها فشلت في آخر المطاف وثبت صدق الرسول فيما أخبر به عن ربه في هذين النموذجين خصوصا، وسيتحقق تبعا لذلك كل ما أخبر به من أحداث مستقبلية سواء ما تعلق بالأمور الدنيوية أو أمور الآخرة عموما، فمن صدَقَنا من قبل ومن بعد في الدنيا، فمن العقل والمنطق والشرع أن نصدقه أيضا فيما بعد البعد من الغيبيات وأحوال يوم القيامة.

ثالثا: التحدي العلمي

تمكن المسلمون قبل هذا الانفجار المعلوماتي والتكنولوجي من معرفة حقائق علمية إيمانية وردت في نصوص الوحي الإلهي ووصفها المفسرون باستعمال الأداة اللغوية وما توافر من نصوص شرعية أخرى، ثم بما كسبوا من معارف علمية أو تجارب متداولة بسيطة، بينما لم يتمكن الإنسان المعاصر البعيد عن هدي القرآن والسنة من معرفة نفس تلك الحقائق إلا بعد أن بذل جهدا كبيرا في البحث والاكتشاف مع ما يتطلب ذلك من تفكير عميق وإنفاق للأموال والأوقات، لقد عرف المسلمون منذ عصر التنزيل مراحل تطور الجنين في بطن أمه بألفاظ دقيقة يعبر كل منها عن مرحلة معينة في تسلسل خلقي بديع سيما تلك المرحلة التي لا يمكن ملاحظتها بالعين المجردة وهي مرحلة الانقسام الخلوي وتكوُّن الخلايا الأولى للنسيج البشري أو ما يعرف بالخلايا الجذعية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14)﴾ [المؤمنون: 12-14]، ولم يزد علماء العصر على ذلك شيئاً رغم الجهود المضنية التي بذلوها وما أجروه من تجارب وتشريحات مجهرية تيقنوا على إثرها بأن القرآن قد سبقهم وأنه لا يمكن عقلا أن يصدر مثل هذا الكلام إلا من الخالق الذي خلق الإنسان[34].

وأيضا فقد عرف المسلمون عامتهم وخاصتهم من خلال قراءة القرآن وتدبره ما لا يعرفه اليوم إلا العلماء والمتخصصون في مراكز البحث والدوائر الأكاديمية، من مثل أن السماء مبنية، ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29)﴾ [النازعات: 27-29]، وأنها باعتبارها بناءً فلها أعمدة غير مرئية ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2]، وأنها نسيج محبوك ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: 7]، وأن لها سقفا... ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 32]، وأنها ذات أبواب ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15)﴾ [الحجر: 14-15]، فكل الأوصاف السابقة التي تكون في الأبنية أطلقها القرآن على السماء ولذلك استخدم علماء الكون نفس المعاني والمصطلحات التي ذكرها القرآن بعد أن كان اعتقادهم بإن السماء فراغ وفضاء، فعادوا إلى تسميتها بالبناء الكوني أو النسيج الكونى[35].

وغير هذا كثير مما يتلى من آيات القرآن الكريم يوميا في بيوت المسلمين وفي مساجدهم وفي أي مكان يوجدون فيه، وإذا كان المنكِر لهذه الحقائق الإيمانية في ريب منها فما عليه إلا تفنيدها،غير أن علماء الكون تحققوا من صحتها سواء بقصد أو بغير قصد - وهو الغالب في أبحاثهم واكتشافاتهم- حيث تبين أن تلك الحقائق الإيمانية هي حقائق علمية أيضا ،وأن الإيمان الصحيح لا يتعارض مع المنهج العلمي والعلم الأصيل.

الخاتمة

تبين من خلال هذا البحث أن الإشكال الذي يطرح بين العلم وبين الإعجاز والتحدي في القرآن الكريم ليس حقيقيا وأن المنهج العلمي نفسه تكفل بذلك، فالقرآن كتاب يمتزج فيه العلم بالإيمان ويتكامل فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، بل يؤكد أيضا على قصور العلم البشري أمام الوحي الإلهي وذلك عن طريق التجربة والبرهان المادي الذي ينتهجه العلماء أنفسهم ، وتبين أيضا أن استناد الإلحاد المعاصر

على المنهج العلمي لا أساس له إلا بعض العلوم الزائفة التي اتخذها قاعدة إيديولوجية في محاولة فاشلة للحفاظ على خلفية يجتمع حولها أنصاره، ولقد سبق القرآن الكريم فلاسفة العصر في اشتراطهم - زيادة على التحقق- أن تكون النظرية العلمية قابلة للتفنيد والدحض، وهذا الشرط هو الذي ساهم في فضح بعض النظريات التي كانت تنتسب إلى المنهج العلمي وصنفها في إطار العلوم الزائفة مثل نظرية التطور وبعض نظريات العلوم الكونية في حين أثبتت هذه المنهجية الجديدة صحة نظريات علمية أخرى عن طريق محاولة تفنيدها بالتجربة ولكنها صمدت، وتظهر هذه المنهجية جلية في القرآن الكريم من خلال عرض بعض النماذج في قضايا مختلفة حول التحدي بالإعجاز في مجالات البيان والغيب والعلم التجريبي والكوني والتي أكدت على أن الحقائق الإيمانية هي أيضا حقائق علمية، والله هو الموفق إلى سواء السراط.

قائمة المصادر والمراجع

1- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2، 1964م.

2- الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن علي الآمدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1983م.

3- المحصول، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1988م.

4- الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 4، 1980م.

5- كارل بوبر مائة عام من التنوير، عادل مصطفى، مؤسسة هنداوي، سي آر سي، المملكة المتحدة،2017م.

6- لطائف الإشارات، (تفسير القشيري)، عبد الكريم القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3.

7- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422هـ.

8- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3.

9- تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط 1، 1420هـ.

10- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: د/ مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1426هـ.

11- الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3، 1987.

12- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 2، 1990.

مراجع إلكترونية:

https://www.alukah.net/sharia/0/72987

https://quran-m.com/

https://ar.wikipedia.org/wiki/

الهوامش:

[1]- شرح لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي، محمد صالح العثيمين، الدار السلفية، الجزائر، ط 1، ص 14.
[2]- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط 1، 1422هـ، 24/1.
[3]- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 159/17.
[4]- تفسير القرطبي، 94/2.
[5]- المرجع نفسه، 44/4.
[6]- تفسير أبي السعود، 287/6.
[7]- تفسير القرطبي، 115/7.
[8]- المرجع نفسه، 266/15.
[9]- المرجع نفسه، 336/15.
[10]- تفسير أبي السعود، 287/7.
[11]- الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن علي الآمدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1983، 15/1.
[12]- المحصول، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1988، 13/1.
[13]- الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 4، 1980، ص 73.
[14]- الجامع الصحيح (صحيح البخاري)، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: "بني الإسلام على خمس"، المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا، رقم1، 8/1.
[15]- المنخول من تعليقات الأصول، أبو حامد الغزالي، دار الفكر، ط 2، 1980، ص 40.
[16]- كارل بوبر مائة عام من التنوير، عادل مصطفى، مؤسسة هنداوي، سي آر سي، المملكة المتحدة، 2017، ص 11.
[17]- انظر: كارل بوبر مائة عام من التنوير، (مرجع سابق)، ص 23- 24.
[18]- انظر: المرجع السابق.
[19]- التشكيك في العلوم الإنسانية الغربية الحديثة سواء في مناهجها أو في موضوعها أو في أهدافها يجعلنا نشكك منهجيا أيضا حتى في علومه التجريبية ولذلك يتوجب على الدوائر العلمية المتخصصة العمل على إعادة التجارب الكبرى للعلوم الحديثة عامة والتجريبية خاصة لكي نتأكد من نتائجها بأنفسنا ونخرج بذلك من ربقة التقليد الأعمى لكل الطروحات الوافدة من الغرب.
[20]- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط 2، 1964، 93/10.
[21]- لطائف الإشارات، (تفسير القشيري)، عبد الكريم القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، 396/3.
[22]- ولد في أكسفورد، إنجلترا (8 يناير 1942 - وتوفي في كامبردج يوم 14 مارس 2018).
[23]- فيزيائي أمريكي ملحد ولد في مدينة شيكاغو الأمريكية سنة:1954م
[24]- انظر: الجاذبية أم الإله، مصطفى نصر قديح، اطلع عليه: 28 ديسمبر 2023م.
https://www.alukah.net/sharia/0/72987
[25]- انظر: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 2، 1384هـ - 1964م، 344/8.
[26]- انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422ه، 120/3.

[27]- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 349/2.

[28]- تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط 1، 1420هـ، 43/1.

[29]- الحرب الساسانية البيزنطية (الروم الشرقيون) [628/602م]، في هذه الفترة توالت انتصارات الفرس على الروم فاحتلوا الكثير من بلاد الشام ومصر والعديد من الجزر في بحر إيجة وأجزاء من الأناضول، وكاد الفرس أن يقضوا على حكم الروم لولا صعود الإمبراطور هرقل سنة: 610م حيث استعاد زمام المبادة من الفرس في العديد من المعارك آخرها تلك المذكورة في سورة الروم. وهي معركة (نينوى) بالعراق سنة: 627م على قول، وأما القرآن فيشير إلى تحديد المكان بقوله: **في أدنى الأرض**، والأدنى لغة يأتي بمعنى: الأقرب والأقل والأصغر، وهو ما يتطابق مع أرض الشام وبالتحديد: غور الأردن، فهو أقرب بلاد العرب إلى الروم، وأقلها انخفاضا عن مستوى سطح البحر، إضافة صغر مساحته. انظر: https://ar.wikipedia.org/wiki/ الحرب الساسانية البيزنطية، تفسير الزمخشري، 466/3-467.

[30]- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: د/ مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1426هـ، 249/8.

[31]- انظر: تفسير الزمخشري، ووصل خبر هذه المعركة إلى المسلمين عام 628هـ بعد أن انصرفوا من مكة عاقدين صلح الحديبية، 466/3-467.

[32]- انظر: لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، 432/3.

[33]- مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، 86/28.

[34]- القرآن مرجع لتصحيح المعلومات سواء العلمية أو التاريخية أو غيرها وليس العكس باعتبار أن جهد الإنسان المعرفي والعلمي نسبي وعرضة للخطأ، فتفسير القرآن الكريم يستأنس بهذه العلوم أو يوظفها للمناظرة والجدل مع المخالفين ولا يعتبرها أدلة قطعية، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: 76]، فهذا القرآن يبين لهم الحكم في أكثر ما يختلفون، أو يبين لهم الحق في أكثر ما يختلفون فيه، بمعنى يصحح ويرجح لهم رواياتهم المتعارضة، انظر: تفسير الماتريدي، 134/8.

[35]- انظر: السماء المبنية والأعمدة المخفية، د/أحمد سنان الكامل، https://quran-m.com/ اطلع عليه في: 13 جانفي 2024م.